مهندس القلوب: فضيلة الشيخ أَلْوَارْلِي أَفَه

ســؤال: حبّذا لو أشركتمونا مشاعرَكم ومعرفتكم بفضيلة الشيخ "ألوارلي أَفَه": شخصيته وأسرته وأُفُقه الروحي ورسائله الدَّعَوية وأثره فيكم؟

الجـواب: الحقيقـة أنّ الحديـث عـن شـخصية عظيمة كهـذه وإبرازَ صورتهـا كاملةً أمر يفـوق طاقتي؛ فأعترف لِزامًا بادئ الأمر أني ليس لدي من الفقه ما يحيطني علمًا بحياته، وعالمه الفكري، وأفقه القلبي والروحي بكل خلفيته؛ ثم إنه لما رحلت تلك الشـخصية العظيمة وحلَّقت إلى أفق روحها كنتُ في السادسة أو السابعة عشرة من العمر؛ نعم، ما إن أبصرت نـور الحيـاة حتى وجدتني على ضفاف هذا المنهـل العذب المورود لكن أنى لفتى في هذه السن أن يستفيد بحقّ من إنسان عظيم رحب الأفق مثلِه، فليُنظَر إلى ما سأذكره وأعبّر عنه في ضوء وعْيي المحدود وضعف مهارتي ورؤيتي الفتيّة يومئذ.

دوحة نيِّرة مباركة

نشـأ فضيلة الشيخ "ألوارلي محمد لطفي أفندي" في دوحة كأنها نبـع مبارك فيّاض؛ فأبوه حسين أفندي وشقيقه وهبي أفندي شخصيات عظيمة جدًّا، لم أر والده لكن حسـبنا في التعريف بفضل ذلك الشـخص المبارك وكمالاته هذه الواقعة:

obeikandl.com

قدم الشيخ محمد لطفي ووالده حسين قِنْدِيغِي أفندي -وهما من آل البيت- إلى تكية الشيخ الكُفْرَوِي في بِتْلِيس لينتسبا إلى طريقته، فلما رآهما كأنه اكتشف ما لديهما من ملكة واستعدادٍ، فاعتنى بهما أيما عناية، واهتم بهما اهتمامًا عظيمًا، وأوعز إليهما بخلافته فورًا دون امتحان ولا سير وسلوك ولا خلوة أربعينية؛ نعم، لا يعرف قدر الجوهر إلا الجوهريّ، ولا الذهبِ والفضةِ إلا الصائغ، وهذا الشيخ الكفروي ما إن رآهما حتى عرف قيمتهما وقدّرهما لأنه جوهري يعرف قدر الجواهر، فأوعز إليهما بخلافته؛ إنه أمر أذهل تلاميذ الشيخ الكفروي فراحوا يتطاولون عليهما في الكلام ليلًا، وإذا الباب يُفتَح على مصراعيه، والشيخ الكفروي يقول: "يا أولادي، إن حسين أفندي ومحمد لطفي أفندي لا حاجة بهما إليّ، وإنما أَتَتْنَا بهما كمالاتهما":

وأنَّى لأرباب الكمال بلوغها إلا بِهِ
وما في فضّة ولا ذهب غِنى إذا فُقِدَ الكمال

فماذا يغني عنك الذهب والفضة ولو كان مثل كنوز قارون، ما دمتَ لم تبلغ الكمال!

وأخوه وهبي أفندي بحر أيضًا، فالصمت سمته الدائم، وكان لهذا الصمت تأثير يُحدث تموُّجات متنوعة في روح الإنسان، وكان لوالدَيَّ توجُّه صادق عميق إلى كلٍّ منهما، وكذلك كان جدي يُكِنُّ لهما احترامًا عظيمًا، وكانا ينزلان ضيوفًا عليه في منزله، وكان وهبي أفندي أكبر سنًّا من الشيخ ألوارلي أَفَه، ولما توفي ﷺ كنت في الخامسة من عمري، وأظن أن الشيخ كتب هذا البيت في رثائه:

"بعُدْتُ عن الأخيار حتى إنني غَدَتْ "واحسرتاه" وِرد لساني!"

نغمات حرَّى تُلهب الأرواح

كان لجُوَّانية الشيخ ألوارلي أفه عمق جيّاش بالعشق والهيجان، وحاله في مجالس الذكر مثال حي لثرائه القلبي هذا، كان نقشبنديًّا وقادريًّا في نفس الوقت؛ فكانت مجالس الذكر عنده نقشبندية أحيانًا، وقادرية أحيانًا أخرى.

وفي تلك المجالس كان فضيلته يتوجّه بكل ذاته إلى الحق تعالى، وتُلهبه تلك النغمات وتحرقه، فيغيب عن نفسه أحيانًا، ويُحدث فيمن حوله حالةً روحيةً مصطبغةً بصبغته الخاصة، وينشر في القلوب نارَ العشق، فإذا انفعل أحدهم، ففاضت عيناه من الدمع سرت حالته هذه إلى الآخرين أيضًا، وأدخلتهم جميعًا في مناخ من العشق والانفعال؛ أجل، إنه مناخ عشق وانفعال ما زلتُ أشعر بأثره رغم أني كنت طفلًا عندما شهدت هذه الأحوال.

كان فضيلته عاشقًا للنبي ﷺ عشقًا خالصًا، جاءه أحدهم يومًا وقال له: "رأيتُ في شوارع المدينة المنورة مخلوقات كثيرة جَربَة"، فردّه قائلًا: "صه! فمثل هذا لا يُقال ولو على كلاب المدينة! نفسي الفداء لها بل حتى لكلابها الجرباء من أجل رسول الله"؛ وكلامه هذا كان يقوله بكلّ ذاته بإخلاص نابع من صميم قلبه حتى كأنه يقوله وهو يغيب ويفنى في شخصية رسولنا المعنوية ﷺ، وإليكم شعرًا له يجلّي حبَّه العميق لرسول الله ﷺ:

إنك لَأنت الشاهد المقدس وعالَمُنا بشمسك قد تزيّنا

مُخَّمس الضفائر وحاجباك للفؤاد زَيَّنَا

والكون قاطبةً لم يبلغن مقدار شعرة منك ولا يَزِن

ففي الكونين فاح عبير عنبر من شعرةٍ منكم يا سيدي فليهنأَنْ

وكانت تُنشَد تلك المدائح النبوية في مجالسه، فتهيّج الحاضرين وهو أولهم، وكان يترنم أحيانًا بمثل هذه الأبيات:

لَكَ قَلْبي عاشقٌ يا حبيب فما السبب؟

جمالُكم كالشمسِ إذ سطَعَتْ، فيا تُرى هذا السبب؟

وحاجب منكم بدا قاب قوسين فلا عجَب

وصُورتُك سورة الرحمن، يا تُرى هذا السبب؟

وأحيانًا يرفع صوته بها حتى لكأن المكان يرتعش وكذا كلُّ من حضر.

لا يَعرف الفضل من الناس إلا ذووه

كان الشيخُ سلطانًا في الكلام، يذهب مذهب أهل العروض في شعره الذي يترنّم فيه بإلهامات روحه، ورغم أنه شاعرٌ مُفلِقٌ إلّا أنه لم يكن يضيق بما يُنشَد بين يديه لمشايخ آخرين، بل يشجّع على ذكرها، فإن كانت حقًّا أجلَّها ووقّرها أيًّا كان قائلها، ثم يتبناها وكأنها بنات أفكاره، ويَقْدُرها قدرها، وحاله هذا مقياس مهمّ لرصدِ أُفُقِه وعالمه الفكري والشعوري، ولإدراك مدى فضله وعظمته.

وإليكم حادثة سمعتها من أخينا الكبير "صالح أُوزْجان"، ولها أهميةٌ بالغة عندي؛ فهي تكشف عن فضل الشيخ وغنى قلبه:

في مطلع الخمسينات قدم الأخ الكبير "صالح أوزجان" إلى مدينة "أرضروم"، وقابل الشيخ وقبّل يديه، ثم قال له: "شيخي الفاضل، ثمة عالم يُدعى "الأستاذ بديع الزمان"، كتبَ رسائل عن الدين والإيمان، أسماها "رسائل النور"، ونحن نسعى لنشرها في كلّ العالم، ونَغُذُّ السير

لإنقاذ جيل الشباب خاصّة"، فردّ عليه الشيخ قائلًا: "آه! ليت لي عينان تُبصران لساعدتُكم في نشرها".

أجل، الفضل هو أن تعترف بفضل أهل الفضل، وتُظهر لهم كلّ احترام وتقدير.

كلماتٌ يتردّد صداها في أذني

وأستميحكم عُذرًا في سرد حادثتين لا يمكن أن أنساهما، وقَعَتَا لهذا الشيخ العظيم الذي أشعرُ في أعماق روحي بأن معرفتي به عناية ربّانيّة:

لما شرعنا في دراسة كتاب "مُلّا جامي"[٩٦]، توجهتُ إليه أنا وزملائي، فإذا به جالس مع عدد من أثرياء أرضروم، فلما رآني قال لهم: "سأسأل تلميذي هذا سؤالًا، فإن أجاب فادفعوا له كذا وكذا من المال"، فلم يسألني إلّا عن مواضعَ من الكتاب أعلمُها جيدًا فأجبتُه عليها كلّها، فأعطوني ما حدّده الشيخ، وأظنه نحو مائتي ليرة يومئذٍ، وربّما كانت تكفي يومئذ لأداء فريضة الحج، وكان الشيخ أعشى فلم يعرف كم جمعوا من المال، لذا سألني فأجبته، فقال: "هذا كثيرٌ عليك، سأعطيه لـ"دميرجي عثمان أفندي" ليسدّ به احتياجات المدارس".

كنا نعيش في فقر مُدْقِع ونحن طلاب في المدرسة في "أرضروم"، حتى إننا في بعض الآونة لا نكاد نجد الخبز والجبن ثلاثة أيام أو أربعة، وكان أبي إمامًا براتب، فكان يعطيني بضع ليرات، لكنها لم تكن تكفيني...

(٩٦) **مُلّا جامي** (٨١٧هـ/١٤١٤م - ٨٩٨هـ/١٤٩٢): هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، نور الدين، مفسر فاضل، ولد في جام (في بلاد ما وراء النهر) وتوفي في هراة. له مؤلفات تقارب المائة، وله كتاب في النحو، صنفه شرحًا لكتاب "الكافية لابن الحاجب" لخص فيه ما في شروح الكافية على أحسن الوجوه وأكملها مع زيادات من عنده سماه "الفوائد الضيائية".

وكم قضينا من الأيام بحاجةٍ إلى ثمن الخبز!

وبينما كنّا نتلوّى من الجوع ذهبنا وبعض الأصدقاء إلى التكية مع "طيب أفندي" حفيد أخ الشيخ، وكان بجوار التكية مستودع تبن، يستخدمونه بيتًا للمؤنة، فأتيناه ونظرنا من ثقب بابه، فاشتهينا بطيخًا رأيناه فيه، وكان الشيخ يصلي، ثم فُتح الباب، فقال لنا الشيخ: "تعالوا يا أولاد، سآتيكم ببطيخ وأقطّعه بيدي".

أجل، كم شهدنا من أمثال هذه الحوادث، فلنا أن نقول: إننا وجدناه إنسانًا بعيدَ الغور، ذا أفقٍ واسع وبصيرةٍ نافذة، يفهم المرء من حاله، ويقرأ جوانيته.

وحمادى القول: حسبي أني عرفته وإن لم أستطع أن أستفيد منه حقّ الاستفادة، وهذه عناية ربانية، فللّه الحمد على هذا الفضل والعطيَّة.

أما يوم أن رحل الشيخ إلى الرفيق الأعلى، فقد كان والدي ﷺ في أرضروم، وكنا نستريح معًا في بيت خالته رحمها الله، وفجأةً تناهى إلى مسامعي ناعٍ ينعى الشيخ، فنهضتُ من مكاني فورًا، واتجهتُ صوب مدارس جامع "قُورْشُونْلُو"، فوجدتُ الأصدقاء يبكون، فتوجهت إلى بيت شيخنا ﷺ، وكان يقيم ببيت في حيّ "مُومْجُو"؛ وحضر الجنازة أيضًا مفتي أرضروم "صادق أفندي" والعلاّمة "ثاقب أفندي"؛ وغسّلاه بأنفسهما ولم يأذنا لأحد بذلك، وكان يومًا شاتيًا حمل فيه الشيخ إلى قرية "ألوار"، ودفن هناك؛ فتوافد الناس جميعًا على القرية -رغم الشتاء والثلج- ليشهدوا تشييع الجنازة إلى مثواها الأخير.

نسأل الله سبحانه أن يحشرَ هذا الرجلَ العظيمَ تحت لواء سيّدنا وحبيبنا محمد ﷺ، وأن يُسكنه معه في الفردوس الأعلى. آمين.

لَيْتَ نافعة وأخرى بلا فائدة

سؤال: حالة التأوه والتشكي والعويل التي يُعبَّر عنها في القرآن الكريم على نحو: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٢٧-٢٨)**، ما الذنوب التي تُفرز تلك الحالة في الآخرة؟ وما الأمور التي يجب مراعاتها لئلّا نقع يومئذٍ في شباك حسَرات عقيمة؟**

الجواب: مطلع الآية الكريمة: **﴿وَيَوْمَ﴾** إخبار عن يوم مرعب، ثم ذكرت أن الظالم في هذا اليوم المدهش يعضّ على يديه وقد غرق في مشاعر الندم والأسف، و"العض على اليدين" كناية عن الشعور بالندم في أسًى وحسرة وغمّ.

وكنَّتِ الآية عن الندم الذي يشعر به الظالم بهذا: **﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾**، ولا يقتصر شعور الندم الذي يحس به الظالم على هذا فحسب، بل إن العبارات التالية لتعبّر عن حالة الندم التي تسيطر فيها مشاعر الحزن والغم: **﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾** أي: ليتني لم أتخذ فلانًا الخائن الطائش صديقًا، ولم أصفق له، ليتني لم أسلك سبيل الضالين!.

بيد أن تمنياته بـ"ليت" لن تغني عنه في الآخرة شيئًا ألبتة، بل ستضاعف ندمه، إن قوله "ليت" هناك سيضاعف مصيبته لأنه بذلُ طاقة بلا فائدة، وعبارات الندم هذه ستُقال في الآخرة، أو عندما تبلغ الروح الحلقومَ حين تودّع اليدُ أختَها والرِّجلُ صِنْوَها إبَّان الانتقال إلى حياة البرزخ أُولى مراحل عالم الآخرة، وأيًّا كان التوقيت فتلك الكلمات ملأى بالأسف والحسرة والشجن يقولها من ضيّع وأهدر ما في يده من فرص عن وعي منه.

"لَيْتَ" الكبرى

إن ثمة ذنوبًا وآثامًا كثيرةً يتلوى الإنسان منها في الآخرة ندمًا وحزنًا بل إنها تحرقه وتكويه بنارها في أعماقه، وعلى رأسها الكفر؛ لأن الكَون برمته كتابٌ يعرّف بالله بكل جملة وكل كلمة وكل حرف منه؛ أجل، حين يصغي الإنسان إلى كتاب الكون بإنصاف دون أن يستبق الأحكام سيسمع كل كلمة بل كل حرف يردد: "لا إله إلا الله"؛ ولهذه الحقيقة الواضحة أيما وضوح رأى الإمام الماتريدي أن من لم تبلغهم دعوةُ نبي مكلَّفون بالإيمان بالله تعالى، لأنهم حين ينظرون في كتاب الكون سيحكمون بلا شك بوجود خالقٍ وإن لم يعرفوه ﷻ بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، ولم يعرفوا ذاته تعالى من طريق النبوة والوحي، فزيدُ بن عمرو بن نُفيل عمُّ سيدنا عمر بن الخطاب -أو ابن عمه- ﷺ كان يعبّر في العصر الجاهلي عن هذا بقوله: "اللَّهمّ إِنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيْكَ عَبَدْتُكَ بِهِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ"، ثم يسجد على راحلته[٩٧]؛ فلا ندم ولا حسرة في باب "ليت" أكبر من أن تبلغ الروح الحلقومَ وقد حيل بينها وبين الإيمان بالله تعالى.

ومن الباعث على قول "ليت" في الآخرة الضلالُ بعد الهداية؛ إذ ليس بين الإيمان والكفر وبين الهداية والضلالة سوى حجاب رقيق،

(٩٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ٢/٢٣٧.

ورب أمرٍ صغير يزجّ بالمرء في الجانب الآخر؛ لذلك فإننا نحن المؤمنين ندعو الله تعالى أربعين مرةً في الصلوات الخمس وسننها بأن يهدينا الصراط المستقيم؛ ثم نسأله أن نسلك سبيل مَن أسبغ عليهم سبحانه نعمه قائلين: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/٧)، وآيةٌ أخرى تذكر أن هؤلاء الذين منّ الله عليهم بنِعَمه هم النبيّون والصدّيقون والشهداء والصالحون[٩٨]؛ ففي كلِّ يومٍ نسأل الله تعالى في صلواتنا أن يهدينا صراطَ تلك الزُّمَر الأربع؛ ثم نستجير بكنفه تعالى ورحمته أن نكون ممن غضبَ عليهم فضَلّوا بعد الهدى: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/٧).

ومن الوهم والخيال المحض أن نفكر على هذا النسق: "ها نحن قد عثرنا على طريقنا، ومن الآن فصاعدًا سنبلغ هدفنا دون أن نزيغ أو نزِلّ أو نتعثر وننتكس، ودون أن نُضَلَّ ونعلق بحبال الشيطان ألبتة ونحن في هذا الطريق"؛ فمن ذا الذي يضمن لك السير على هذا الطريق حتى تلحق بربك؟؛ بل من أمن العاقبة كان عرضة للخطر، ذلك أنه يُخشى على عاقبةِ مَن لا يَخشى على عاقبته؛ أجل، على الإنسان أن يرتعد ويرتعش في كل حين حذرًا من الضلال بعد الهدى، وعليه أن يكون دائمًا في هذا الأمر بين شدٍّ وجذب معنوي؛ فليتوسل العبد إلى الحقِّ تعالى دائمًا أن لا يكِله إلى نفسه طرفة عين، وأن يقيه هَمْز الشياطين ولَمْزهم؛ فما أثمنها من جوهرة يود شياطين الإنس والجن سرقتها وقد نصبوا لها شباكهم، إنها حقيقة الإيمان التي بها ينال المرءُ الجنةَ، ويحظى بالرضوان، ويغدو أهلًا لرؤية جمال الله تعالى، فالذي عليك فعله هو أن تستمسك بهذه الجوهرة

(٩٨) ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٦٩).

الثمينة، وتصونها وتحرسها من شياطين الإنس والجن، وتكون على وعي ويقظة دائبة تجاه هذا الأمر.

أوجُه الضعف التي تخسف بالإنسان الأرضَ

ومما يجعل الإنسان يتأوه آهات أليمةً انحرافه عن الصراط المستقيم بوُقوعه فريسةً للفيروسات التي عددها فضيلة الأستاذ بديع الزمان في "الهجمات الست"(٩٩)؛ فكلٌّ منها كفيل بأن يصرع الإنسان، أي كما أن حب الجاه والمكانة واللهث وراء الشهرة من المهلكات، فكذا الخوف فإنه وحده قد يُهلك العبد ويُرديه، وكذا الطمع، والعنصرية، والأنانية، والكسل، والانغماس في الترف قد تهوي بالعبد في مكان سحيق، ولما كان بوسع كل واحدة من نقاط الضعف الست الخبيثة أن يقضي على الإنسان، فإنها إن اجتمعت معًا في آن واحد لن تصرعه فحسب، بل إنها -نسأل الله السلامة- ستهوي به في أسفل سافلين؛ أجل، قد يصاب الإنسان بهذه الفيروسات في أي لحظة ولو كان من أهل الإيمان والإسلام، فمن سيطر عليه حبّ الشهرة قد يمسخ وجهَ أعمال اضطلع بها خدمةً للدين، حتى وإن كان من فئة صالحة؛ ومَن همُّه أن يكون يُشار إليه بالبنان ليمدحه الناسُ ويذكروا آثاره الرائعة قد يُخسف به مجازاة له بنقيض رغبته هذه؛ ومن مُني بشعور مقيت كهذا فهو عرضة لمثالب أخرى كثيرة أيضًا، ولا أحد يَقْدِر أن يحزو ما نوعية المثالب التي قد يرتكبها من رَكِبَتْه شهوة الشهرة مثلًا.

كل هذه الأمور مهالك ربما تعرِض لكل قلب مؤمن حتى وإن كان

(٩٩) هو القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرين من كتاب "المكتوبات" للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ويعني الأستاذ بـ"الهجمات الست": حبّ الجاه والشهرة، والخوف، والطمع، وفكرة العنصرية، والأنانية والغرور، وحب الراحة والدعة.

يعيش في بيئة مؤمنة، وقد تحمله في الآخرة على أن يقول "ليت" -نسأل الله السلامة-؛ أجل، إن من عجز عن أن يسترشد بدساتير الإخلاص، فراح يعزو إلى نفسه ما حققه من نجاح، ويستثمر ذلك في الشهرة، ويلهث وراء التبجيل والتقدير، سيتنفس الندم في الآخرة، ويتلوى أسًى وأسفًا وحسرة وحرقةً قائلًا: "يا ليتني لم أضيّع هذه الأعمال ولم أهدرها بالجري وراء الثناء والتصفيق! ليتني لم أُبحر إلى العدم صفر اليدين! ليتني لم أقع في تيارات آخرُها الموت!"؛ والمؤلم حقًّا أن آهاته وحسراته لن تغني عنه شيئًا أبدًا، بل ستضاعف معاناته، وتزيد مصيبته.

تروسٌ واقية من "ليت" القاضية

على المؤمنين إذًا أن يتصرفوا ههنا بعقلانية، وأن يعدّوا النجاةَ من الكفر والضلالِ أعظمَ نِعَم الله تعالى عليهم، وأن يتجنبوا سُبُل الكفر والضلال؛ لأن المعاصي بريدُ الكفر كما ذَكَرَ الأستاذ بديع الزمان ﵀.

يقول رسول الله ﷺ: "**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** (سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣)"[١٠٠]؛ وذلك أن كلّ نكتةٍ تنكت في القلب تستدعي نكتة أخرى، والقلوب تتكدّر بالذنوب والمعاصي والسيئات وتسودّ بمرور الزمان؛ فإن لم تُطهَّر من المعاصي والذنوب بالتوبة والاستغفار ختم الله عليها، كما قال ﷻ: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ (سورة البَقَرَة:٢/٧)، ﴿**وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٨٧)، ثم لا تعقل شيئًا من رسالة السماء الطاهرة، فما يكون منها إلا أن تقول في الآخرة: "ليت، ليت".

(١٠٠) سنن الترمذي، تفسير القرآن، سورة المطففين، ١.

أمّا ما لا بدّ منه هنا للحيلولة دون الوقوع في براثن "ليت" القاضية، فهو بـذل المجهود في طاعة المعبـود بلا تقصير أو تعطيل، والتحليقُ بجناحي الخوف والرجاء؛ وتحقيق هذا رهنٌ بالقلب الخاشـع، يقول رسول الله ﷺ: **"لَوْ خَشَـعَ قَلْبُهُ لَخَشَـعَتْ جَوَارِحُه"**(١٠١)؛ فخشية القلب تنعكس على الأفعال والسـلوكيات، ويومًا بعد يوم تغدو الجوارح والأعضاء ترتجف من خشية الله تعالى، حتى إن قزحية العينين لتتراءى فيها ذبذبةُ الخوف من الله.

وعلى ذلك فإن نكّس العبد رأسـه حياء من جلال الله وعظمته، ورجَا سَـعة رحمته، وتمنّى على الله من فضله، وعاش حياته بهذا التوازن وتلك الدقة، وقى نفسَه يوم القيامة من التردّي في الندم والحسرة.

وذكرُ العبدِ الدائمُ لحبيبه ﷺ يجنبه مثالب تسوق إلى عاقبةٍ وخيمةٍ قد تضطره إلى أن يقول في الآخرة: "يا ليتني"، يقول الشـاعر التركي سـليمان شلبي رحمه الله:

اذكر الله في كلّ نَفَس على الدوام فبذكره يصير كلّ شيء على ما يرام

وقد عَبّر عن هذه الحقيقة أحد أولياء الله الصالحين، فقال:

ألا ليت حِبّي يحبُّه الخلق أجمع وليت قصته مدار حديثنا وما أمتع

أجـل، إننا إن ذكرنا ربّنـا حيثما حللنا، ونوّرْنا مجالسـنا بذكره تعالى، وأكسـبْنا أوقاتنا عمقًا لا تسـعه الأبعاد، كنا ممن اتقوا مثالب كثيرة سـائقة إلى قول: "يا ليتنا" في الآخرة.

"ليت" من صُوَر الاستغفار

سـؤال: هـذه "ليت الفاجعـة" فهل ثمـة "ليت ناجعة"؟ ومـا المقياس في هذا؟

(١٠١) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ٣/٢١٠.

الجواب: رأينا أن هناك "ليت" لا نفع منها أبدًا في الآخرة، بل تُضاعِف العذاب وتجعل المصية مصيبتين؛ وثمة "ليت" نافعة إيجابية محمودة ذات قدْر في ديننا؛ وفصلُ ما بينهما النية، ومن النافعة أن سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ قال: "إِنِّي لَا آسَى عَلَى شَيْءٍ، إِلَّا عَلَى ثَلَاثٍ فَعَلْتُهُنَّ، وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْهُنَّ؛ وَثَلَاثٍ لَمْ أَفْعَلْهُنَّ وَدِدْتُ أَنِّي فَعَلْتُهُنَّ؛ وَثَلَاثٍ وَدِدْتُ أَنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْهُنَّ..." وذكر منها: "وَدِدْتُ أَنِّي يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ كُنْتُ قَذَفْتُ الْأَمْرَ فِي عُنُقِ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: أَبِي عُبَيْدَةَ أَوْ عُمَرَ، فَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُنْتُ وَزِيرًا؛ وَوَدِدْتُ أَنِّي حَيْثُ وَجَّهْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى الشَّامِ وَجَّهْتُ عُمَرَ إِلَى الْعِرَاقِ، فَأَكُونَ قَدْ بَسَطْتُ يَدَيَّ يَمِينِي وَشِمَالِي فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ؛ ووَدِدْتُ أَنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَنْ هَذَا الْأَمْرُ -أي الخلافة- فَلَا يُنَازَعَهُ أَهْلُهُ"[١٠٢].

أرى أن هذا الضرب من الندم في كلام الصدّيق الأكبر ﷺ ليس إلا ثمرة المحاسبة ونتاج همٍّ عميق وتشوّف إلى الفقه في الدين وجعلِ الدين روحًا للحياة بميزان دقيق؛ فما أجزله من ثواب وما أرفعها من مرتبة حازها الصدّيق ﷺ بهذا الندم ما كان لنا أن نبلغها؛ وقد أشار مفخرة الإنسانية ﷺ إلى قدره بقوله: "**لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِمْ**"[١٠٣]، إنه الصدّيق الأعظم؛ هو من فعل -بفضل الله سبحانه- في سنتين وبضْعة أَشْهُر وبضْعة عشَر يومًا ما لم تستطع الدولة العليّة العثمانية أن تفعله في ١٥٠ عامًا؛ ولم يَضطهد الدُّوَلَ الضعيفة كما يفعل المستبدّون، بل بثَّ إلهامات روحه في البلاد التي فتحها؛ نعم، لقد استهدف الوصول بالروح المحمدية إلى كلّ مكان مرّ به ويمّم وجهه إليه، والحقّ أنه

(١٠٢) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٦٢/١.

(١٠٣) البيهقي: **شعب الإيمان**، ١٤٣/١.

هو مَن عبّد الطريق للفتوحات العظيمة التي تحققت في عهد سيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ.

نعم، إن هذا الضرب من "ليت" أضفى على قيمة هذه الشخصية العظيمة التي تفضُل الناس جميعًا قيمةً أخرى؛ ولكل مؤمن "ليت" إيجابية ترفع قدره مثل: يا ليتني أحسنتُ استغلال شبابي، واقتطعتُ ساعتين من كل ليلة أصلي فيهما مائة ركعة، ليتني جنّبتُ نفسي أهواءها، وصُنتُ يدي ورجلي وعيني وأذني عن الحرام حتى في عنفوان الشباب إذ تستثير فيه الغرائزُ والشهوات عادة، ليتني لم أنظر إلى الأغيار ولم يتسلل إلى عيني أي شبح غريب...

إن "ليت" هذه التي تزفر بها الصدور في ندم مقترنةً بنية تحويل الآمال إلى أعمال لَتُعلي قدر الإنسان ومكانته؛ أما تلك التي تردّدها الألسنة في الآخرة فما هي إلا حسرة وندامة ليس إلا، فالندم في الدنيا ضرب من الاستغفار، كلّما عَرَض للمرء استغفر ربه، بل إنه ليستحيي أن يقول "أستغفر الله" مرة واحدة، وإنما يقول: "أستغفر الله ألف ألف مرة"، ويلجأ إلى الله بالتوبة والإنابة والأوبة، فإن طرَق العبد بروح كهذه بابَ رحمته ﷻ عظم رجاؤه بأن مولاه لن يخيب آهاته وأنّاته، بل سيتغمده بواسع رحمته وفيض إحسانه.

الاستغفار

سـؤال: ما الذي تؤمّله القلوبُ المؤمنة من الاسـتغفار، لا سيما في أيامنا هذه التي تفشّـت فيها الذنوبُ في كلّ الأنحاء وكأنها مرض معدٍ؟ وهل هناك أوقاتٌ معينة يحسُن تحرّيها للاستغفار فيها؟

الجـواب: جاء في الخبـر: "**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَـى الفِطْرَةِ**"[١٠٤]، والمقصـد الأصلي مـن التكاليف الشـرعية هو الحفاظ علـى هذه الفطرة الأصليـة التـي فطر الله الناس عليها، أي إن الإنسـان مكلَّفٌ بالحفاظ على الفطرة الأصلية التي فطره الله عليها حتى يلقاه سبحانه.

وبينمـا تهـدف كلُّ "الْمُنْجِيـات" إلـى حمايـة الفطرة الأصليـة، ترمي كلُّ "الْمُهْلِكات" إلى إفسـاد الفطرة الأصلية؛ فليعمل الإنسـان على تشييد حصون منيعة يُجابه بها الذنوب المهلكة، ويتحرى فيها الأعمالَ الصالحة دائمًا، وليبحثْ عن وسـائل يحافظ بها على فطرته ويحفظها من أن تكون عُرضة للتلوث والفساد.

إنّ فـي كلّ ذنـبٍ إفسـادًا للطبيعـة الإنسـانية، ومن تعـرَّض لمثل هذا الفسـاد لا تتأتى إعادته إلى طبيعته الأصلية إلّا بالاستغفار، أي إن الذنوب تُحدث تغيّراتٍ سلبيةً في ماهية الإنسان، وشيئًا فشيئًا يغدو القلب الملوث

(١٠٤) صحيح البخاري، القدَر، ٣؛ صحيح مسلم، القدَر، ٢٢.

obeikandl.com

بالآثـام عاجـزًا عـن القيام بوظيفته، وكلّ ذنب من شـأنه أن يُبعد الإنسـانَ عـن الله ويقرّبـه إلى الكفر؛ ولا خـلاص من الآثام التي تقـرّب إلى الكفر إلا بالاسـتغفار، ولا سـبيل إلى تطهير القلب من الأدران وما نُكت فيه من نِكات سوداء إلا به.

الطب الوقائي

الأصل أن يتّخذ الإنسانُ في البداية موقفًا حازمًا من الذنوب والآثام، فلا يدنو ولو إلى أصغرها، وعليه في هذا أن يسعى إلى تهيئة جوٍّ نقيٍّ طاهرٍ يجنّبه الوقوع في الآثام، وأن يفرّ فراره من الأسد من بيئة تُغريه بالمعاصي، وإنّه لَعسيرٌ إلا على قلبٍ مؤمنٍ يشعر في وجدانه أن كل ذنب يقترفه يهوي به في نار جهنم دَرَكَة، وأي قلب لا يُنكِر الذنب هو قلب ميّت.

أجـل، إن القلـب إنْ استسـاغ الذنوب، ولم تُقلقـه المعاصي ولا أرَّقه ما ارتكبَ من زلّات، فهو كالجسد الميت، فالقلب المؤمن يستنكر الذنوب لا محالة، والاستغفارُ أول عملية يجب فعلها تجاه الذنوب.

إنّ قولـك "أسـتغفرُ الله" بصيغـة المضـارع معنـاه: "اللهـم إنـك عفو غفـور، فاعـف عني واغفـر لي ما حَييـت"، فللعدول عن صيغـة الماضي إلى المضارع الدالّ على الزمن المفتوح مغزًى عميق جدًّا؛ مفاده أن العبد يعمّم طلب المغفرة مِن ذنبٍ ارتكبه في الماضي على المستقبل كله.

قـد يغفـر الله ذنـوب عبـده بالاسـتغفار مرة واحـدة، لكن علـى العبد ألَّا يكتفـي بمـرة واحدة يسـأله فيها العفو عن عثرات يديـه وعينيه وأذنيه، بـل لا بـدّ أن يندم طوال عمره على ما اقترفه وإن كان ذنبًا واحدًا، ويتوجه إلى الله قائلًا: "اللهم إني أسـتغفرك، ولن أزال أسـألك المغفرة ما حييت،

فـلا تكفينـي مـرة واحدة، بل أسـألك المغفرة الآن وسـأظل أبدًا أسـألك وأتندّم على ذنب ارتكبتُه، اللهم فاغفر لي".

أجـل، علـى المؤمن أن يفكّـر كلّما اقترف ذنبًا أنَّ مـن العيب الفظيـع أن يسـلك طريق السـيئات وقد هـداه الله إلى طريق الحسـنات، وأن يعلم -وقد وعده الله بالجنة- أن التعامي عن هذا الوعد والاسـتغراق في الآثام قباحـة وأيّ قباحـة، فعليـه أن يسـتحي، ويتوجـه إلى الله بالاسـتغفار أبدًا، فيسـتغفره علـى ذنبٍ واحدٍ آلاف المرات، بل ألـف ألف مرة، حتى يُطهّر وجدانه بهذا الاستغفار.

إكسير يستأصل شأفة النزعة إلى الشرّ

الاسـتغفار كمـا يُعيد إعمـار الفطرة المخرَّبة، يسـتأصل شـأفة النزعة إلى الشرّ أيضًا؛ لأن ملازمة التطهر بالاستغفار تمنـع استحداث مناخ يدعوه إلـى ذنـب جديـد، أي إنّ قلبـه تنقّى مـن أي فَيروس يسـتدعي ميكروبات أخـرى؛ وأيضًـا قد يُضعف الله بصورة لا نعلمها نزعةَ الإنسـان إلى اقتراف الذنوب والآثام، يقول تعالى: ﴿**مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٠)، فالآية تبشّر من يتوجهون إليه سبحانه بالإيمان والعمل الصالح والاستغفار والتوبة بأنه سـيبدّل سـيئاتهم حسـنات؛ أجل، إذا توجّه العبد إلى الله محا الحقُّ تبارك وتعالى ما في صفحات كتابه من آثام اقترفها، ولا يتركها فارغة بل يملؤها بواسـع رحمته بالحسنات، وهذا تجلٍّ آخر لرحمته التي تسبق غضبه.

وللأستاذ بديـع الزمان ﷺ تفسيرٌ آخر لهذه الآية: ذكر أن الله تعالى قد يبدّل نزعات الشرّ لدى من أناب إليه بالتوبة والاستغفار بنزعات إلى الخير، أي إنْ اقتـرف العبـدُ ذنبًـا ثم أناب إلـى الله فتاب توبةً نصوحًـا، قال الله له: "رجعتَ إليَّ؛ سأنعم عليك فأبدِّل نزعات الشرّ لديك نزعاتٍ إلى الخير".

obeikandl.com

أوقات مهمة للاستغفار

يُسنّ الاستغفار ثلاثًا عقب الصلوات المفروضة[١٠٥]، أمّا فضل الاستغفار عقب أداء أحبِّ العبادات إلى الله وأقربِ ما يكون العبد من ربه فله سببان:

أولهما: أن الصلاة معراج المؤمن إلى ربه، فمن سوء الأدب مع الله في عبادةٍ هذا فضلُها أن يذهل العبد عن صلاته، ويسيح في أموره الخاصة، ويشتغلَ قلبه بالأمور الدنيوية عن جلال وقوفه بين يدي الله تعالى، ومثل هذه التصرفات تنمّ عن غياب الوعي أو العناية بالصلاة فتقتضي الاستغفار؛ إذ كان ينبغي أن يهرول العبد وهو بين يدي الله تعالى سعيًا وراء لطائف أُشربها قلبُ سيد السادات ﷺ يوم المعراج.

ثانيهما: الدعاء بعد الصلوات مظنة القبول، وله فضل خاص؛ فهذا المقام أرجى لقبول الدعاء والتضرع، ولا شيء أحوج للعبد من مغفرة الذنوب؛ لذا وصّى سيدنا رسول الله ﷺ بالاستغفار والتوجه إلى الله في هذا المقام، فالصلوات الخمس أساس وفرصة مهمة للاستغفار.

ولعل من أهم أوقات الاستغفار ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/١٧-١٨)، تشير هذه الآية إلى وقت مهم للاستغفار، فهي تثني على من يقوم بالأسحار يستغفر الله ويجأر إليه ويطيل السجود حتى لكأنه ينسى أن يرفع رأسه منه، ثم ترفَعُ هذا الثناء إلى أهل السماء والروحانيين وجميع المؤمنين؛ وفي الآية إرشادٌ للمؤمنين إلى تحديد الهدف، لأن

(١٠٥) انظر: صحيح مسلم، المساجد، ١٣٥.

وصف المؤمنين في الكتاب والسنة تقدير لهم، ودعوة إلى نصبِ هدفٍ أمامهم ينبغي الوصول إليه؛ فإن القيام في السَّحَر والناسُ نيامٌ، والتعبد لرب العالمين بصلاة التهجد ولو ركعتين، والاستغفارَ بعدها، عملٌ عظيم في لحظات خاصة لا يرى الإنسانَ فيها أحدٌ.

والأوقات التي يرقّ فيها القلب، ويشعر الإنسان بثقل ذنوبه، وتفيض فيها مشاعره، لا بد أن تُستغل استغلالًا جيدًا في الاستغفار، لأنها لحظات تهبّ فيها نسائم القرب.

وسرعة الأوبة إلى الحق تعالى كلما ارتكب العبد وزرًا وذنبًا مؤشر على استغلال أول لحظة يُدرك فيها الإنسان أنه خطا خطوةً نحو الذنوب، وهذه اللحظة مهمة للشروع في الاستغفار؛ لأن الذنب يشبه الدُّوامة، ويُورِث صاحبه الإدمان عليه؛ ولذلك ليس كل مَن غرق في الذنوب بقادر على أن يتخلص منها، بل إن الغارق في مستنقع الذنوب والآثام -إن لم يعزم على الخروج منه عزمًا حقيقيًّا وعجز أن يعطي إرادته حقّها- قد يتمنى يومًا أن لو لم تُحرَّم تلك الذنوب؛ وهذا يعرّض الإنسان لمصيبة اعتقادية، وإنما هلك من هلك عامةً بهذا الضرب من الخواطر، فمن الأهمية بمكان أن يتوب الإنسان فورًا من الذنوب التي وقع فيها قائلًا: "إن هذا الطريق يؤدي إلى المستنقع، فلو خطوت بضع خطوات قد أصل إلى موضع يستحيل الرجوع عنه".

والأوقات المذكورة وإن كانت فرصةً للاستغفار إلا أنه لا يُشترط تخصيص وقت معيَّن له، ولا يصح حصرُ الاستغفار بها ألبتة، فللعبد أن يطلب العفو والمغفرة في أي وقت: بكرة وعشيًّا، ليلًا ونهارًا، وأن يستثمر كل لحظة من عمره في الاستغفار؛ أجل، إن الإنسان عندما يجد

الفرصة له أن يخلو بنفسه ويستغفر الله ويتوجه إليه تعالى بالتوبة كيفما كان راكعًا أم ساجدًا أم جاثيًا؛ وكذا في كل أحواله: عندما يذهب من مكان إلى آخر، أو يقود سيارته، أو ينتظر أحدًا... بوسعه أن يناجي ربه سبحانه بأي شكل من أشكال الاستغفار، والأصل أن يستغل الإنسان كل لحظات حياته في هذا، لأن الموت يأتي بغتةً، واستقبال الموت بشفاهٍ رطبة بالاستغفار وسيلةٌ مهمة جدًّا لارتحال الإنسان إلى الآخرة طاهرًا مطهَّرًا.

سؤال: الاستغفار بوتقة تطهير وتزكية للقلوب المؤمنة، فما هي أصوله وآدابه؟

الجواب: على العبد عند الشروع في الاستغفار أن يتذكّر جلالَ الله وعظمتَه، ولا ينفكّ عن التعظيم والتكبير والتسبيح له جلّ في علاه.

وورد في هذا روايات كثيرة عن سيدنا رسول الله ﷺ تدل في جملتها على ندب البدء في الاستغفار بهذا الذكر: "**اَللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ**".

ويُستحسن بعد تمجيد الله وإجلاله وتعظيمه الصلاةُ والسلامُ على سيد السادات ﷺ؛ فهذا أدعى لقبول الاستغفار، لأن الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ دعاء مستجاب، وهي أيضًا فرصة عظيمة للمؤمن ووسيلة مهمّة للاتصال بمفخرة الإنسانية صلوات ربي وسلامه عليه، فالتوجه إلى الله تعالى استشفاعًا بالصلاة على سيد الأوّابين ﷺ قبل الشروع في الاستغفار يعدّ وسيلةً أخرى للقرب من الله ﷻ.

ويحسن الاستغفار لأمة محمد قبل الاستغفار لأنفسنا كما نفعل في صلاة الحاجة، كأن نقول: "اللهم اغفر لأمة محمد ﷺ، اللهم ارحم أمة

محمد ﷺ"، وهو دعاء "الأبدال" صباح مساء، وطلبُ الخير لأمّة محمد ﷺ وسيلةٌ لقبول الاستغفار، بل ولك أن تقدِّم نفسك إن كنت تعد نفسك أعتى العصاة في هذه الأمة: "اللهم اغفر لي واغفر لأمة محمد، اللهم ارحمني وارحم أمة محمد ﷺ".

طلب المغفرة بأحسن الحديث

وللعبد بعد هذه الديباجة أن يتوجّه إلى الحقّ ﷻ بأمثال الآيات التالية، طمعًا في غفران ذنوبه وخطاياه:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)،

رَبِّ إني ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٣/٢١)،

﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ١١٨/٢٣)،

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ١٦/٢٨)،

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٤١/١٤)،

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٤٧/٣).

هذه أدعية من القرآن، ووردت أدعيةٌ رائعة في السنة الصحيحة في الاستغفار أيضًا، منها: عن أبي بكر الصديق ﷺ: أنه قال لرسول الله ﷺ: "عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي" قَالَ: **"قُلْ: اَللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ"**(١٠٦)؛ ومحلّ هذا الدعاء السجود وعقب التشهد وعند الاستغفار.

(١٠٦) صحيح البخاري، الدعوات، ١٧؛ صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٤٨.

دعاء آخر سمَّاه عليه أكمل التحيات "سيد الاستغفار": **"اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"**؛ قال ﷺ: **"مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِي، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ"**(١٠٧).

تَضرَّعْ حتى تتطهّر

وللعبد أن يسجد ويكثر من هذا الدعاء حتى يضنيه التعب والجهد، ويشعر بالتطهر والاطمئنان في قلبه: **"يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْن"**، وزاد بعضهم: "وَلَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ".

ويستحب للعبد أن يدعو بهذا الدعاء بوصفه نفحةً قلبيّة، وقد كان رسول الله ﷺ يقوله إذا استيقظ من الليل: **"لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"**(١٠٨).

وعلى كل إنسان أن يرى أخطاءه وعيوبه وذنوبه، وينقدها بما يلائم منزلته الخاصة؛ فيسبح الله تعالى ويستغفره آلاف المرات يوميًّا، وصحَّ "أن أبا هريرة ﷺ كان يسبّح كلّ يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، يقول: أسبّح بقدر ذنبي"(١٠٩).

(١٠٧) صحيح البخاري، الدعوات، ٢.
(١٠٨) سنن أبي داود، الأدب، ٩٨.
(١٠٩) ابن حجر: الإصابة، ٣٦٠/٧.

ولا أظن أنه اقترف ذنبًا ما، إنه الأَسَد الذي قدِم من دَوْسٍ ولحق بأصحاب الصُفَّة، وصحب مفخرة الإنسانية ﷺ مدةً طويلةً، وهو أكثر مَن روى عنه ﷺ، فصار بعد رحيله المنهل العذب المورود الذي يرِده الناس جميعًا، وكان يرى الاستغفار ضروريًّا باعتبار أُفقه الخاص، وحين نضع نُصْبَ أعيننا حياتنا الحالية التي أغرقتها الذنوب فإننا لو استغفرنا الله ثلاثين ألف مرة في اليوم لكان قليلًا.

زد على هذا أنه يمكن اعتماد استغفارات الأكابر المذكورة في كتاب "القلوب الضارعة" وردًا، فهذا الإمام الحسن البصري كان عنده من العمق ما يحيّر العقول، وكان شديد المحاسبة لنفسه، ويمكنكم أن تقرؤوا ورده في الاستغفار[١١٠] مقسّمًا على أيام الأسبوع كما كان يفعل، وكان يبدأ الاستغفار بالصلاة والسلام على النبي المصطفى ثم يعدّد ما يعده ذنبًا لنفسه، ويختم استغفاره بالصلاة والسلام أيضًا. والحقيقة أنَّه لم يكن عصرُه ولا طبيعتُه هو ملائمين لاجتراح تلك النوعية من السيئات؛ أجل، لا يمكن لإنسان يذكر الله في كلّ أحيانه، ونذر حياته للكفاح في سبيل الحق أن يقع في هذا الضرب من الذنوب؛ ولا أحد يدري، فربما كان يتوب إلى الله متضرعًا ويستغفره متحرقًا على الخواطر والخَطَرات، ونحن لو كررنا مرتين أورادَه هذه التي كان يقرؤها كل ليلة مرةً فإنه لقليل؛ لأن ذنوبنا أكثر بلا ريب، ولأننا لم نبلغ مبلغه ولم نتقدم عليه في الدين.

وعلى المستغفر أن يختم تضرعه وابتهاله الجاري من قلبه على لسانه بمثل ما بدأ به من صلاة وسلام على سيد السادات ﷺ، فلا أرجى في القبول من دعاء بين دعاءين مقبولين، فليصلِّ ويسلِّم على الرسول الأكرم ﷺ مرةً

(١١٠) القلوب الضارعة، ص ١٤٢.

أخـرى في نهاية دعائه كي يطير اسـتغفاره بجناحَي دعاءين مقبولين ويبلـغ معارج القبول.

وأذكِّـر بـأنّ كلّ كلمة يُتفوه بها في مقام الاسـتغفار ينبغي أن تُقال عن وعـي وشـعور، فمـا يُقال في غفلـة وبلا وعـي كلُّه سـوءُ أدب مـع الحق تعالـى، وقـد يكون كذبًا؛ فينبغي فـي كلّ كلمة أن تنبـع وتخرج من أعماق القلب، ولا بد أن تترك كلُّ واحدةٍ منها أثرًا حيث مرّت؛ بل على الإنسان حين يبوح للحق تعالى بجوانيته في وعي كهذا ويسـأله المغفرة أن يتلوى حياءً من ذنوبه، ويقشعر ندمًا وحسرةً حتى كأن قلبه قد توقَّفَ.

obeikandl.com